# الدولة المملوكية الجديدة في مواجهة الخطر

نهى محمد نصر الدين أحمد
الفرقة الرابعة – كلية الآداب
قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
جامعة الإسكندرية – جمهورية مصر العربية
spirit-love-N@hotmail.com

يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل دولتهم في مصر والشام بأمد بعيد؛ إذ استخدمهم الخلفاء العباسيون الأوائل، واعتمدوا عليهم في توطيد دولتهم، واستعانوا بهم في الجيش والإدارة، ولعلَّ الخليفة المأمون العباسي (١٩٨- ٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م) هو أول من استعان بهم، ثم اعتمد عليهم الخليفة العباسي المعتصم (٢١٨-٢٢٨هجرية) في توطيد نفوذه و سلطانه، حيث ضاق هذا الخليفة بنفوذ الفرس وأراد أن يقضى عليهم فقرر أن يعتمد على الأتراك بدلاً منهم، فامتلك أعداداً كبيرة منهم و شكل منهم قوة حراسة الجيش و بنى لهم مدينة و جعلها عاصمة لملكه وهى مدينة سامراء، وقد نتج عن ذلك تغلغل نفوذ المماليك الأتراك في كافه الولايات التابعة للخلافة العباسية و من بينها مصر.

ومن المعروف؛ أن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية في مصر(٢٥٤-٢٩٢هجرية) كان أبوه تركياً، فكان من الطبيعي أن يعتمد أحمد بن طولون على المماليك الأتراك من بنى جنسه لتوطيد سلطانه، فأكثر من شراء مماليك الديلم "سكان جنوب بحر قزوين". ثم تأسست الدولة الإخشيدية في مصر (٣٢٣-٣٥٨هجرية) فجعل محمد بن طغج الإخشيد جيشه من الأتراك ومن الديلم، وقد بلغت عدة هذا الجيش بمصر و الشام ٤٠٠.٠٠٠ جندي عدا حرسه الخاص.

وعندما فتح الفاطميون مصر عام (٣٥٨هجرية/٩٦٩ميلاديه) كانوا في حاجة إلى جيش كبير يوطد أركان دولتهم فيها ويسهل ما اعتزموه من مد سلطانهم إلى بلاد الشرق، وكان جيشهم في بادئ الأمر مؤلفاً من المغاربة فأضافوا إليه في مصر الأتراك والأكراد. أما الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٧هجرية/١١٧١ميلاديه) فقد عمل سلاطينها على جلب الأتراك إليها، وبذلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم. وكان أكثر السلاطين الأيوبيين استجلابا للأتراك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد اختار الملك الصالح جزيرة الروضة لتكون مقراً للمماليك حرصاً على تحاشى أي احتكاك بينهم و بين أهالي القاهرة، وشيد لهم بها قلعة ليسكنوا فيها ولذلك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية.

وبمقتل تورانشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين أيوب في عام ٦٤٨هجرية/١٢٥٠ميلاديه ينتهي عصر الدولة الأيوبية في مصر والشام، وبتولي شجر الدر السلطنة يبدأ عصر جديد هو عصر سلاطين المماليك الذين حكموا من خلال دولة عُرفت باسم "دولة المماليك"، وقد عرفت بهذا الاسم لأنها قامت على أكتاف فئة من الرقيق الأبيض أو المماليك، وقد واجهت الدولة المملوكية الجديدة عدة أخطار تمثلت في:

## الأيوبيون في الشام

كان أول الأخطار التي تعرضت لها الدولة المملوكية الجديدة معارضة الأيوبيين أصحاب الحق الشرعي في ملك مصر والشام، ولذلك بادر الأيوبيين بالاستيلاء على السلطنة بالشام، فاستولى الملك الناصر يوسف صاحب حلب على دمشق، والملك المغيث عمر على الكرك والشوبك، والملك السعيد حسن على قلعة الصبيبة، واستقر رأى أمراء المماليك على أن يشترك في الحكم مع المعز أيبك طفل من سلالة الأيوبيين هو الأشرف موسى حفيد الملك الكامل محمد وكان في نحو السادسة من عمره، على أن تكون جميع الأمور في يد المعز أيبك، ولكن هذا الإجراء لم يسكت غضب الأيوبيين في الشام فاضطر المعز أيبك إلى أن يعلن في جميع أنحاء البلاد أن مصر تابعه للخليفة العباسي المستعصم بالله وأن الملك المعز أيبك نائبه بها، ورغم ذلك صمم الناصر يوسف على المسير إلى مصر والقضاء على المماليك.

خرج الناصر يوسف بعساكره من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان سنة ٦٤٨ هجرية الحادي عشر من ديسمبر سنه ١٢٥٠ميلادية بصحبة عدد من ملوك الأيوبيين بالشام في طريقه إلى مصر. فلما وصلت هذه الأخبار إلى القاهرة أسرعت العساكر المملوكية بقيادة الأمير الناصر يوسف حسام الدين أبوعلي إلى الصالحية، كما سار المعز أيبك إلى الصالحية أيضاً، وعندما وصل الملك الناصر يوسف إلى قرية "كراع" كان التفوق واضحا لجيوش الناصر لكثره عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه، ولكن سرعان ما انتهى القتال لصالح الملك المعز أيبك وفرار الملك الناصر يوسف وأسر عدد من ملوك الأيوبيين. وكان من نتائج هذا النصر أن أقدم المعز أيبك على عزل الملك الأشرف موسى وانفرد باسم السلطنة في عام ٦٥٠هجرية/١٢٥٢ميلادية.

وفي عام ٦٥١هجرية/١٢٥٣ميلادية عُقد الصلح بين الملك المعز أيبك وبين الناصر صاحب دمشق، عندما أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله رسوله للقيام بالوساطة بين الطرفين ونجح في عقد الصلح على أن تكون مصر وجنوب فلسطين وغزه والقدس وبلاد الساحل للمعز أيبك، وأن تكون الأجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة

لملوك البيت الأيوبي ، وأن يطلق المعز سراح من أسره من رجال الناصر يوسف .

## ثورة الأعراب في مصر

ثارت القبائل العربية في مصر في بلاد الصعيد وبعض مناطق من الوجه البحري وقطعوا الطرق براً وبحراً فتوقف التجار عن القيام بنشاطهم ، وكان الدافع الرئيسي وراء ثورة هذه القبائل العربية هو رفضهم الخضوع للمماليك لأنهم من الجنس التركي وليس من الأحرار وتولى زعامة تلك الثورة الشريف حصن الدين ثعلب.

اجتمعت حشود القبائل العربية بالقرب من ديروط وأقسموا يمين الطاعة والولاء لحصن الدين ثعلب ، وبلغ عدته ١٢٠٠٠فارس فجهز لهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار ، ولحقت الهزيمة بحصن الدين ثعلب وفر هرباً ثم طلب الأمان من المعز فأمنه و استدعاه إليه وسرعان ما قبض عليه وعلى سائر أصحابه وكانت عدتهم نحو ٢٦٠٠ رجل فأمر الملك المعز بشنقهم جميعاً. أما حصن الدين ثعلب فقد أرسل إلى الإسكندرية وحبس بها ، وفي نفس الوقت سارع الملك المعز بإخماد ثورات العرب في أنحاء البلاد وفرض عليهم المزيد من الضرائب والمكوس ومعاملتهم بالعسف والقهر فانتهت ثوراتهم طوال العصر المملوكي.

## الصراع بين أمراء المماليك

استفحل نفوذ فارس الدين أقطاي خاصة بعد نجاحه في القضاء على ثورة العرب وانضمت إليه المماليك البحرية فأصبح بمثابة ملجأ لهم يسألونه في حوائجهم ويكون هو المتحدث باسمهم مع المعز ، وقد اضطر الملك المعز إلى السكوت عن تصرفات أقطاي وحاول استرضائه فاقطعه ثغر الإسكندرية. ولكن سكوت الملك المعز جعل أقطاي يتمادى في تصرفاته وهنا قرر المعز قتله قبل أن يفكر في عزل المعز وتولى السلطنة في مصر بدلاً منه.

أرسل الملك المعز إلى أقطاي يستدعيه إلى القلعة للتشاور ، وبمجرد دخوله القلعة أغلقت الأبواب وأمر المعز بالقبض عليه وقتله ، وانتشرت الإشاعات في القاهرة بقتله فسارع أصحابة في نحو ٧٠٠ فارس ووقفوا تحت القلعة وفي ظنهم أنه لم يقتل وإنما قُبض عليه ، ولكن المعز أمر بإلقاء رأس أقطاي إليهم فسقطت في أيديهم وقرروا ترك القاهرة ، فمنهم من قصد الملك المغيث صاحب الكرك ، ومنهم من سار إلى الملك الناصر صاحب دمشق ، ومنهم من ذهب إلى الملك علاء الدين ملك سلاجقه الروم بآسيا الصغرى ، وقد تتبع الملك المعز أيبك من بقى منهم بالقاهرة فقبض على من بقى منهم وقتل بعضهم وحبس الباقي وصادر أموالهم و نسائهم.

صفا الجو للمعز أيبك مدة ، واستمر الحال على ذلك إلى سنة ٦٥٥هجرية/١٢٥٧ميلاديه حين ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجرالدر ، فقد كانت شديدة الغيرة على زوجها أيبك ، حتى أرغمته على التخلص من زوجته الأولى أم ولده علي ومنعته من زيارتها هي وابنها إلى أن سأم المعز من هذه الحياة فبعث إلى الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يخطب ابنته ، وذلك لكي يهجر شجر الدر التي ما لبثت أن فطنت إلى ما يدبر لها وقد ترك المعز القصر وأقام في مناظر اللوق ، فبعثت إليه تلتمس منه الصفح عنها فاستجاب إلى دعوتها ودخل القلعة في الوقت الذي دبرت فيه شجر الدر قتله بحمام القصر في ١٤من ربيع الأول (٦٥٥هجرية/١١من ابريل١٢٥٧ميلادية) فثار المماليك لقتله ودبروا مؤامرة أخرى شاركت فيها أم على زوجة المعز السابقة وانتهت بمقتل شجر الدر ، وانتقلت السلطنة بعد مقتل المعز أيبك إلى أبنه على ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة على أن يلقب بالمنصور ويعين الأمير سيف الدين قطز أتابكا له.

## الخطر المغولي

أثار استيلاء المغول على بغداد وقتلهم للخليفة المستعصم بالله العباسي في ٤ من صفر سنة٦٥٦هجرية/١٠من فبراير سنه١٢٥٨ميلادية موجة شاملة من الذعر والأسى في العالم الإسلامي أجمع ، وبدأ الناس في الشام ومصر بالذات يحسون أن دورهم قريب وأن الموقف يتطلب الاتحاد لمواجهة تلك الأزمة التي لم يشهد المسلمون مثلها حتى ذلك الوقت. ولكن ملوك الأيوبيين بالشام رأوا أن يتخذوا في مبدأ الأمر سياسة مهادنة وملاينة المغول لعل ذلك ينقذهم من أذاهم ، فبعث الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق بابنه إلى هولاكو يخطب وده ويسأله أن يعينه على أخذ مصر من أيدي المماليك لكن هولاكو رد عليه ردا جافا يأمره بالخضوع والتبعية دون قيد أو شرط ، ثم بدء هولاكو غزو الشام فلم يجد الناصر يوسف بداً من مد يده إلى المماليك يطلب منهم العون والمساعدة.

قرر الأمير سيف الدين قطز إعلان نفسه سلطاناً على مصر بعد أن نادى بأن الملك المنصور على بن المعز أيبك صبى صغير لا يعرف تدبير أمور السلطنة وانه لابد من وجود سلطان قوى على عرش السلطنة ليقاتل التتار ، وفي نفس الوقت اندفع هولاكو بجيوشه إلى شمال الشام فاستولى على حلب وقلعتها ومنها إلى دمشق فاستولى عليها فاضطر الملك الناصر للانسحاب إلى غزة وهناك أخذ جنده ينفضون من حوله وانضم بعضهم إلى المماليك فاضطر إلى أن يتجه إلى قطيا الواقعة على الحدود المصرية ولكن المغول بعثوا ببعض رجالهم فأسروه .

وفي عام ٦٥٨هجرية/١٢٦٠ميلادية أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد إن هي امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له ، فلما وصل هذا الخطاب إلى قطز جمع أمراؤه وشاورهم في الأمر فاتفقوا على قتل رسل المغول والمسير إلى الصالحية وتناسى المماليك وأمراؤهم خصوماتهم السابقة وأسرعوا يتحدون مع بعضهم كتلة واحدة لمواجهة هذا الخطر الذي يهددهم جميعاً. ومما يذكر في هذا الشأن ؛ أن كثيراً من المماليك البحرية من أنصار أقطاي الذين كانوا قد فروا من مصر على اثر مقتله اخذوا في العودة إليها ثانيةً وعلى رأسهم الأمير بيبرس البندقداري ليساندوا حكومتهم وسلطانهم في هذه الفترة العصيبة فرحب قطز بهم وأقطع الإقطاعات الكبرى لكبارهم.

ونودي في القاهرة ومختلف مدن مصر بالخروج للجهاد في سبيل الله ونصره لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل الملك المظفر سيف الدين قطز إلى ولاته على مدن وأقاليم مصر لإرسال العساكر تمهيداً للخروج إلى الشام. وسار قطز حتى نزل بالصالحية وتكاملت عنده

العساكر فطلب اللقاء مع أمراء المماليك وتكلم معهم في الرحيل لقتال المغول فوجد منهم تقاعسا ورفضوا الرحيل فقال لهم "يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فان الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين" فاضطروا إلى الرحيل مع قطز.

عاد هولاكو إلى بلاده بسبب وفاة الخان الأعظم مانجوخان ، وجعل كتبغا نوين نائبا عنه بحلب ، وبيدرا نائبا عنه بدمشق.عهد السلطان قطز للأمير بيبرس البندقداري بأن يتقدم إلى بلاد الشام مع فرقة من العسكر ليقف أو ليستطلع أخبار المغول ، فسار بيبرس إلى غزة واضطرت حامية المغول التي تنزل بها إلى الانسحاب فاستولى بيبرس على غزة ، وفي نفس الوقت سار قطز إلى بلاد الشام فلما وصل غزة واصل المسير على راس العساكر المصرية محاذياً الساحل نحو الشمال ، وضمن حياد الصليبيين بعكا ثم اجتمع بالأمراء وحثهم على إنقاذ الشام من المغول ونصرة المسلمين.

التقى الجيش المملوكي بجيش المغول قرب مدينة بيسان في موضع يقال له عين جالوت يوم الجمعة ٢٥رمضان سنه ٦٥٨هجرية/٣سبتمبر سنه ١٢٦٠ميلادية حيث أظهر الجيش المملوكي شجاعة نادرة حتى يقال أن العسكر اضطرب في أول الأمر فألقى السلطان قطز خوذته عن رأسه إلى الأرض وصاح بأعلى صوته " وا اسلاماه " وحمل بنفسه على المغول وانتهت المعركة بانتصار حاسم للإسلام والمسلمين ومقتل كتبغا وفرار التتار من دمشق ثم من شمال الشام كله فاستولى عليه قطز وبذلك أصبحت مملكته تضم مصر والشام كله.

وهكذا ؛ يمكننا القول أنه بانتصار المماليك في عين جالوت حصلوا على ما كان ينقصهم من مجد لا بد منه لتثبيت أركان دولتهم ؛ ونسى الناس أنهم في حقيقة الأمر مغتصبو العرش من سادتهم الأيوبيين ، ولم يعد الناس يذكرون إلا شيئاً واحداً ، هو أن المماليك أنقذوهم من التتار ، وأن بقاء المماليك في الحكم إنما هو ضرورة لا بد منها للمحافظة على كيان المسلمين في الشرق الأدنى. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نقرر أن موقعة عين جالوت كانت بمثابة الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فجاءت هذه الموقعة إيذاناً بغروب شمس دولة بني أيوب وارتفاع نجم دولة المماليك.

## المصادر و المراجع


- ابن الأثير الجزري ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٨٢.
- أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصري ، القاهرة ١٩٧٢.
- ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفي ، القاهرة ١٩٦٣.
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧٦.
- عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨م.
- محمد سهيل طقوش ، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، بيروت ١٩٩٧م.


### جانب من رسالة هولاكو إلى قطز

مِن ملك الملوك شرقاً وغرباً ، الخان الأعظم ، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء.. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها ومن الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلّطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتَبَر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ.. وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب. فأي أرض تأويكم؟ وأي طريق تنجيكم؟ وأي بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يُسمع.. فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم ، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم. فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر.. فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرب الحرب نارها ، وترمي نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاهاً ولا عزاً ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم إذ راسلنكم ، وأيقظناكم إذ حذّرناكم ، فما بقي لنا مقصد سواكم